

مأزق الهوية في روايات ما بعد الاستعمارية "وحدها شجرة الرمان" أنموذجاً

سيفاً علي عارف فتاح

siva.arif@univsul.edu.iq

قسم اللغة العربية، كلية اللغات، جامعة السليمانية، السليمانية، إقليم كوردستان، العراق.

الملخص:

تعد رواية (وحدها شجرة الرمان) من الروايات العراقية التي صدرت عام (2020) الطبعة العشرون، للكاتب والروائي (سنان أنطوان). هذه الرواية من الروايات التي تتحدث عن المآسي والحروب والدمار التي حلت على العراق. هنا حاول الروائي أن يظهر لنا بصورة دقيقة جميع تلك الأمور البشعة والمدمرة لحضارة العراق وشعبها العريق بجميع مكوناتها دون استثناء. بما أن الفن هو تلك الأداة التي يستطيع الإنسان أن يعبر (بها) عن أي مشاعر تخالجه أو أي حدث يراه ويعيش في داخله يستطيع أن يجعل منه مادة شيقة ومفعمة بالمعاني التي تحمل في تفاصيل أوراقها الحزن والفرح والجمال والقبح.

هنا رصد الكاتب تلك المعاني والتفاصيل والآثار التي خلفتها الحرب في أعظم ضرورها لكي تخلق معاني عميقة من القبح والقهر والظلم وإجهاض الحلم بالإنسانية وهدم السلام وزعزعة السكينة والطمأنينة. كما أنه صور كيف تصبح الحرب أداة لهدم الهوية، لاسيما الهوية الإنسانية في جميع طبقاتها كالهوية الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية والإنسانية المتعلقة بذات الإنسان وكيونته وديمومة عيش حياته. استند الكاتب في عرض هذه المعاني على صور شعرية تزامناً مع استعماله لغة جميلة وشيقة ومثيرة، وتطبيقاً لنظرية ما بعد الاستعمار التي تهتم بجدل الهويات وصراعاتها مع غيرها وفي الوقت نفسه مع ذاتها.

الكلمات المفتاحية: ما بعد الاستعمار، المأزق، الهوية، سنان أنطوان

المقدمة:

تعد رواية "وحدها شجرة الرمان" وغيرها من الروايات التي تتحدث عن تأريخ العراق في حقب الدكتاتورية والحصار وما عاشها الفرد العراقي منها (فرانكشتاين في بغداد) لـ (أحمد سعداوي)، (المحبوبات) لـ (عالية ممدوح)، (الجحيم المقدس) لـ (برهان شاوي) من المعاناة والحروب والدمار وتششت الهوية، حيث جعل الكاتب من الرواية باباً مفتوحاً للدلالات والتأويلات لما تحملها من المعاني العميقة والالاهائية للحديث عن بشاعة الحرب والقتل والدمار والصراع الدائم بين الحياة والموت، أو قوى الشر والخير في الحياة عموماً. تكمن

أهمية هذا البحث في أنه يمثل نوعاً من الدراسات الجديدة لنظرية (ما بعد الاستعمار) والتركيز على مفهوم (الهوية) التي تناولها وبحث فيها النظرية من جانبين: الأول يمثل صراع الهوية مع كل ماهو موجود في الخارج، والثاني صراعها مع الداخل ومحاولة فهم تلك الصعاب والمآزق التي تنشأ من هذه الصراعات. كما ويبين لنا تمكن الكاتب (سنان أنطوان) وإبداعه في خلق النص الروائي الذي اتخذت من حصيلة مآسي العراق مشهداً معبراً عن الموت، وسيطرة فعل الموت ككيان كلي على النص.

ومن الأهداف التي يحققها هذا البحث هو إظهار الصراع والجدل القائم بين الهويات الأخرى والهوية الإنسانية مع ذاتها، عن طريق إلقاء الضوء عليها كأحد المفاهيم التي تشغل عليها نظرية ما بعد الاستعمار. ومآزق الهوية في الرواية (وحدها شجرة الرمان) لـ(سنان أنطوان)، وطريقة بيان الكاتب لشخصية البطل عبر مستويات مختلفة ومتعددة الجوانب، لكي يخلق فضاءً غنياً من المعاني والدلالات التي تجعل من النص الروائي نصاً غنياً وعميقاً مفتوحاً على القراءات.

عليه قسمنا هذه الدراسة على ثلاثة مباحث، في المبحث الأول تحدثنا أولاً: عن مفهوم الهوية وعناصرها التي تكونت منها، ولأسيما ما يتعلق بمآزق الهوية. وثانياً: تناولنا نظرية (ما بعد الاستعمارية) أطرها والمفاهيم التي أسست بها وعلاقتها بالهوية والآداب، وأما المبحث الثاني فخصصناه للتحدث عن الرواية وتحليلها عن طريق استخدام المنهج الوصفي التحليلي وحللنا مقاطع منها لإظهار دلالاتها وجمالياتها.

وأخيراً، يمكن القول إن دراستنا تمتاز باستخدام نظرية جديدة وهي نظرية ما بعد الاستعمارية التي تعنى بمفاهيم جديدة منها الهوية وصراعاتها وتقويض المركزية الغربية والاهتمام بالمهمش ..إلخ.

المبحث الأول: مآزق الهوية وما بعد الاستعمارية:-

أولاً:- الهوية مفهومها وعناصرها :-

عرفت الهوية في معجم الكلبيات لأبي البقاء الكفوي بأنها لفظة تطلق " على معانٍ ثلاثة: التشخيص والشخص نفسه والوجود الخارجي وما قوله (فيما بينهم) هنا إلا لأنها مولدة، غير عربية اشتقها المترجمون القدامى من (هو) كونه مؤدياً بدلالته إلى ارتباط المعمول بالموضوع في جوهره، أما معاجمنا المعاصرة فـ(الهوية) عندها -في مجملها- تراوح معناها ما بين (الذات) وبين (حقيقة الشيء أو الشخص الذي تميزه عن غيره)" (نقلاً عن: الخليل، 2022: 618).

وهناك الكثير من التفسيرات والتعاريف الأخرى للهوية حيث نجد أن الهوية في الماضي "وفرت الطبقة الاجتماعية شيئاً من الهوية العليا (Mastet Identity) هُشمت الهويات الأخرى وكونت الأساس الموضوعي للصراعات السياسية، أما في الستينيات والسبعينيات فبدأ الناس بالاهتمام والتمحور حول القضايا غير الطبقية بفعل متغيرات جديدة، إذ نشأت مواضيع وقضايا مرتبطة بالهويات منها مثلاً: الصراع من أجل حقوق مدنية للسود، وحركات التحرير الوطني، وحركات البيئة والمنظمات النسوية، والحركات الإثنية والدينية الأصولية، وبدلاً من أن يشعر الناس بكونهم جزءاً من طبقة واحدة، أصبحت هويتهم مجزأة طبقاً لجنسهم، قوميتهم، دينهم، أو العمر أو الوطن أو الرؤية نحو البيئة وغيرها". (عماد، 2019: 172).

أما في ما بعد الحداثة فأصبحت تتميز "بوجود الهويات الجزئية: (Fragmented Identities) وبدأ معها ان الناس لم يعد بوسعهم امتلاك تصور واحد وموحد عن هويتهم، وإنما يمتلكون عديداً من الهويات التي تكون أحياناً متعارضة وملتبسة ومفتة غير قابلة للتناغم، ولهذه الهويات الجزئية مصادر متعددة". (عماد، 2019: 172) هنا يعرض لنا كيف يعيش الإنسان بهويات مختلفة وهذه الهوية ما تحمله من آراء وسلوك وتطبعات. ذلك نرى أن (علي حرب) يقول: "وأنا عندما أفكك هويتي أجد أنني كائن هجين، هو مجرد خليط أو كوكيتل من الأطوار والوجوه، أو الميول والعقائد". (حرب، 2008: 202).

أي أن الإنسان خليط مجموعة من الأمور منها العقائد والعادات والتقاليد وقيم وأحكام ترسخت في عقل الفرد منها من هو إنسان محافظ يتغير بفعل القراءة للمذاهب الفلسفية والعقلية أو التغيير من مجتمع زراعي إلى مجتمع حضاري وصناعي، الانتماء للأسرة والطائفة والمكانة ليتحول إلى صور وطبقات أخرى التي تعيد إنتاج هوية الفرد وهذا يخلق نوع من الحالة النفسية خاصة للفرد، لأن البشر جميعاً يحاولون التعرف على هويتهم وفكها لأنهم في محاولة مستمرة للعثور على أنفسهم وهويتهم. لذلك أشار (هول) إلى "أن معظم الثقافات هي ثقافات هجينة وأي محاولة لخلق هويات نقية ستكون عملية خطيرة" (عماد، 2019: 173).

أي ليس هناك شكل أو نوع ثابت للهوية كما بين لنا (ريتشارد جنكينز) إن للهوية "معنى مزدوجاً: فهي داخلية (Internal) بمقدار ما نعتقده ونتصوره حول هويتنا، وخارجية (External) تتعلق بالطريقة التي يراها فيها الآخرون، وعليه فالهويات تتكون وتستقر وفق علاقات دياكتيكية بين هذه العوامل الداخلية والخارجية، وهي تتفاعل لتنتج الهوية" (عماد، 2019: 174).

لذلك نجد أن هوية الإنسان أوسع وأشمل من أي شيء آخر كما قال (علي حرب): "هويتنا أغنى وأوسع وأشد تنوعاً وتركيباً من أن تحشر تحت عنوان واحد، أو وحيد، ولذا فإن أحادية الاسم والأصل والنموذج، هي فخ الهوية، كما هي مقتل الحرية، ولو حاول المرء أن يتأمل أحواله ويخضع هويته للفحص والكشف، يجد بأنها خليط معقد، أو نسق مركب من تعدد الوجوه والأطوار، أو تنازع الميول والأهواء، أو تداخل العقائد والطقوس، أو تشابك التأثيرات والتفاعلات، أي كل ما يسهم في تغذية حياة الإنسان وفي تكوين شخصيته من العناصر والروافد أو الحوافز والمقاصد أو الخيرات والتجارب، في إطار اجتماعه مع سواه أو في سيرة إقامة في العالم واندراجه في أمكنته المتجاورة وأزمته المتعاقبة". (حرب، 2008: 201). والهوية ليست "مجرد انعكاس لأصل ثابت، أو مجرد مهادنة خاوية مع النفس، وإنما هي صيغة مركبة وملتبسة بقدر ما هي سوية مبنية على التعدد والتعارض، وهي عقدة من الميول والأهواء بقدر ما هي شبكة من الروابط والعلاقات، وهي توليفة من العقائد والمحرمات بقدر ما هي سيرة نامية ومتحركة من التحولات والتقلبات". (حرب، 2008: 201-202).

كل هذا يدل على أن العامل الأساسي في الهوية هو (التغيير): "الذي يطبع الهوية وليس الثبات، والتفاعل بحكم علاقة الإنسان بالآخر، وليس الانعزال، ولا يتعلق الأمر بالقضايا السياسية فحسب، بما فيها المواطنة وحقوقها، بل إن المسألة تمس بالصميم الجانب الثقافي، وهذا الأخير بقدر كونه معطى مرتبطاً بالماضي والمستقبل، فإن الجانب السياسي له علاقة بالحاضر، الراهن، القائم، أما جوانب الهوية الخصوصية فلها علاقة بالأرض والتاريخ والجغرافيا (الزمان والمكان)". (شعبان، 2020: 28).

وفي تفسير آخر للهوية هناك من قال بأن الهوية تشبه "العمل المسرحي، من حيث تعدد الشخصيات والأصوات أو من حيث اصطراع المواقف والأدوار. فنحن مسرح الأبطال وشخص أو الأصوات ولغات أو لقوى وآليات تعمل من ورائنا وتتكلم عبرنا، أو تفلت من سيطرتنا وتتعارض مع مشيئتنا. الممكن هو إدارة هذه القوى التي تصطرع داخلنا أو تواجهنا من الخارج، كما يفعل المخرج المسرحي

الذي يدير اللعبة، والناجح هو القادر على إدارة الأهواء والقوى والوقائع والمتغيرات ولذا أوتر الكلام على القدرة أكثر مما أتحدث عن الهوية أو الحرية". (حرب، 2008: 206).

والهوية لها مصادر متعددة التي تبنى عليها منها: الاجتماعية والثقافية حيث "يمكن لمصادر متعددة ان تسهم في خلق الهويات، بل وإعادة بنائها من جديد، طالما أن الهوية ليست معطى نهائياً أو جوهرأ ثابتاً، بقدر ما هي صيرورة دينامية دائمة الانبناء، تؤدي فيها اللغة والثقافة والتاريخ بما هو ذاكرة جمعية، فضلاً عن الأرض والإثنية وعمليات المواقفة، أدواراً مهمة في بناء أبعادها من جهة، وفي تحديد مساراتها وعلاقاتها من جهة أخرى... والهوية نتاجاً دياكتيكياً متغيراً إلى ما لا نهاية". (عماد، 2019: 76).

ونجد في تعريف الهوية لدى علماء الاجتماع بأنها "مجموع التصنيفات الانتمائية التي يرى بواسطتها الإنسان نفسه ومحيطه وهي تضم التصنيفات القائمة على اللغة والدين والعرق والجنس والأدب والموسيقى والعادات والتقاليد والوطن والتاريخ والطبقة والمهنة... إلخ". (الكوخي، 2014: 13).

لذلك نرى "في دول متعددة الأعراق والقوميات والإثنيات والأديان والطوائف، فسرعان ما تندلع الصراعات بين من يدعي تمثيل القومية الكبرى أو الدين السائد أو النافذ أو الطائفة الأكبر من موقع السلطة ومن خارجها أحياناً، وبين أقلية أو فئات مستعدة أو مهمشة، فيستعين كل طرف بثقافته السائدة، عندها يندلع العنف ويحدث الصراع وتتباعد الكيانات وتكبر الهويات". (شعبان، 2020: 25). بما أن الإنسان حر ولديه هوية قابلة للتغيير والتحول، أو يكون بالأحرى حراً في اختيار الطريقة التي يريد أن يعبر بها عن نفسه. وأشار (هول) إلى تعريف (المدرسة التفاعلية الرمزية) للهوية وتطورها أن: "فكرة الهوية الفردية التي تتشكل فقط من تفاعل الفرد مع الآخرين وتعمل الهوية كجسر بين الفرد الاجتماعي والفرد الخالص، بامتلاك الأفراد هوية معينة إنما يتمثلون قيماً ومبادئ وثقافة معينة تصاحب تلك الهوية". (عماد، 2019: 171). إذن "فالهوية هي تعبير بسيط للطريقة التي يعرف بها الإنسان ذاته والآخرين". (الكوخي، 2014: 13).

ويرجع أساس فكرة الهوية إلى السؤال عنها أو الفضول والبحث عن الإحساس بالانتماء لأن فكرة الهوية مبنية على هذا الأساس. أي: "يمكن إرجاع بدايات تأسيس هذا الشعور بالهوية عند الإنسان إلى بدايات ظهور الإنسان على مع المراحل البدائية لنوعنا البشري، حيث كانت روابط الانتماء الاجتماعي ضرورية لبقاء الفرد والمجموعة على قيد الحياة لأن لبنات اجتماعية كالأُسرة والعشيرة والقبيلة دور أساسي في حياة الفرد وبقائه... والتاريخ ولّد لدى الإنسان إحساساً عميقاً - هو محصلة تراكمات أزمنة ماضية - حول وجود هوية مشتركة مع أفراد آخرين، هوية تؤسس لنظرة متشركة للأشياء وتؤسس لبقاء الفرد ولبناء المجتمع". (الكوخي، 2014: 14). أو "مجموعة من الخصائص يُفترض أنها أساسية ومستمرة عند فرد من الأفراد، رغم التغيرات التي يمكن أن تطرأ عليه، وعادة ما يُنظر إلى تلك الخصائص على أنها هي التي تجعله يظل هو هو، متماثلاً دائماً مع ذاته". (الدواي، 2013: 154). و"الإنسان يكتسب خلال حياته أموراً كثيرة تعيد صياغة ذلك الموروث وتشكيله وفي بعض الأحيان تجعله يتخلى عن أمور كثيرة من ذلك الموروث، وهنا تتجلى حرية الإنسان في اختياراته، فبإمكان أي كان أن يُغير موروثه الهوياتي كاملاً رغم القيود التي يفرضها المجتمع، فالإنسان يستطيع تغيير دينه أو على الأقل نظرته إلى ذلك الدين... تغير لغة وتعلم لغات جديدة والتواصل بها...". (الكوخي، 2014: 16).

ونجد الثقافة ودورها في تكوين الهوية الثقافية أو النظر إلى الثقافة كعامل أو "واحد من العناصر والمكونات المهمة لتحديد هوية الشخص الاجتماعية، ذلك لكونها كيفية خاصة لرؤية الوجود والحياة، وأسلوباً في العيش والسلوك والإحساس والإدراك والتعبير

والإبداع، يتميز به مجتمع بشري معيّن في ما يملكه من أصالة عريقة ومتجذرة في تاريخه، إنها نابعة من لغته وآدابه ومن سائر تفاصيل حياته، نابعة من ظروفه وحاجاته وبيئته الجغرافية وتطور بلاده التاريخي والحضاري، ففي مرآتها يتعرف كل إنسان على نفسه، ومن خلالها يُتعرّف عليه من مناظير الثقافات الأخرى". (الدواي، 2013: 31).

و ينظر للهوية الثقافية من خلال الدراسات الأنثروبولوجية والاجتماعية والثقافية كأنها "مجموع المقومات والعناصر الثقافية التي تسمح بالتعرف على الانتماء الثقافي لشخص ما، أو لمجموعة بشرية معينة، كما يمكن أن يُحيل عموماً إلى الوعي، الضمني والصريح، بالانتماء إلى جماعة بشرية معينة تعيش في فضاء جغرافي محدد، ولها تراث ثقافي متميز، يشمل تاريخاً مشتركاً ولغةً، وعادات وتقاليد، وتطلعات مستقبلية". (الدواي، 2013: 154) كما أن "الشعور بالانتماء إلى هوية ثقافية معينة، هو حاجة نفسية واجتماعية ضرورية لاغنى عنها بالنسبة إلى أي إنسان يعيش في هذا العالم، فهذا الانتماء هو الوسيلة الطبيعية لنمو الذات وإثباتها وتفتحها... لأن الإنسان ليس باستطاعته أن ينمو ويعيش حياة عادية إذا لم تكن له جذور ثقافية عميقة أصيلة يتغذى منها". (الدواي، 2013: 154) وإن "الإحساس بالهوية الثقافية والوعي بها لا يصطنع أو لا يصنع صنّاعاً، وإنما هو دائماً كالمكبوت في حالة الكمون، يستيقظ ويشد بصفة خاصة في ظروف التحوّلات والانتقادات الحاسمة التي تمر بها المجتمعات والشعوب والأمم، وخاصة تلك التي تتسم في غالب الأحيان بطابع مأساوي، ذلك لأن التشبث بالهوية الثقافية باعتبارها صورة مثالية مريحة ومطمئنة عن الذات، هو بمنزلة الملاذ الآمن في فترة الظروف الصعبة التي تتخللها الأزمات الحادة والنكبات الكبرى، وأحياناً الهزائم وتصدعات الاجتماعية". (الدواي، 2013: 155).

لذلك كان بطل الرواية يعاني من هذه الأزمات جميعها، لأن هويته الاجتماعية والثقافية والنفسية والإنسانية مشوهة بالإضافة إلى أنه إنسان واعي وفنان مثقف له وعي بما يحصل في بلاده، وأنه يعاني من عدة مأزق مما سبب له مأزق الهوية لديه من حيث الثقافة لأنه فنان، ومن حيث الاقتصاد لأن البلد كان يعاني في ما مضى من الحصار والآن من نهب خيرات الوطن من قبل القوى التي أتت تحت مسمى الإنقاذ والعدالة وإنهاء الظلم، من الناحية السياسية اندلعت حرب الشوارع والطائفية والإرهاب بأشكال متنوعة، ومن الناحية الاجتماعية بسبب الفقر والبطالة والسرقة والرشوة والفساد الإداري. لذلك قال (علي حرب) عن واقع الهوية: "أنا أرى أن الواقع منسوج مما هو شعبي أو أثري أو زائل وعرضي، فأنت عندما تفكك بنية الكائن لا تجد سوى أطياف وكسور أو شظايا على ماتخربنا الفيزياء المعاصرة، تماماً كما أنك عندما تفكك هويتك قد لا تجد سوى التفتت والتوتر والتمزق، أي لا تعثر إلا على اللامعنى الذي يتأسس عليه المعنى.. كما أن هويتنا أكثر من تسوية مع ما لا نرضى به أو مع ما نتمناه ولا نقدر عليه، كذلك ليست الهوية دوماً الاختلاف عن الآخر. قد تكون العكس، بمعنى أن الآخر هو من أتمنى أن أكون مثله ولا أقدر على ذلك، أو من أحاربه فقط من أجل أن أحل محله وألعب نفس الدور الذي يلعبه". (حرب، 2008: 204-205).

ثانياً:- نظرية ما بعد الاستعمارية (الكولونيالية):

يأتي (ادوارد سعيد) في طليعة محلي الخطاب الاستعماري بل يعدّه بعضهم رائد الحقل فقد استطاع بمفرده في كتابه (الاستشراق) عام 1978، أن يفتح حقلاً من البحث الأكاديمي حول "الخطاب الاستعماري" ودراسته "للاستشراق" هي دراسة خطاب استعماري خطاب تلتحم فيه القوة السياسية المهيمنة بالمعرفة والإنتاج الثقافي، ضمّ عمل (ادوارد) أعمال مفكرين أوروبيين هما (ميشيل فوكو) و (انطونيو غرامشي). (ينظر: الخليل، 2022: 512).

كما إن "ما بعد الكولونيالية لا تعني مخاصمة الكولونيالية وإنما تعني الوعي بالثقافات الأخرى، بالهويات والاتجاهات والكتابات التي اريد لها أن تندثر أو أن تنطمس لتعود ثانية إلى الظهور بصفتها الأخرى، أي على أساس أنها كتابات رد القادمة من المستعمرات حاملة معها هويتها وتنقيباتها في خطاب المركز، فالهامش يستعيد نفسه وحضوره داخل المركز الذي سرعان ما انشغل بثقافات الأطراف ليجد نفسه مضطراً إلى الانتباه إليها والإصغاء لها، فالامبراطورية بأطرافها لها خطاباتها العديدة والتي تحمل في داخلها شيئاً لم يألّف من قبل ولم يكن المركز الامبراطوري مستعداً لسماعه". (الخليل، 2022: 513-514). المواضيع والقضايا التي تناولتها النظرية و"التي إلتفت إليها أدب ما بعد الكولونيالية: 1- قضية الهوية. 2- الكتابة الأنثوية والأدب النسوي. 3- الجنوسة، وما يشير إلى أن النساء والأطفال هم الضحايا الحقيقيون لمآسي الحروب والنكبات في المستعمرات، وما جرى على الناس بسبب الاستعمار من فواجع ومواجع". (الخليل، 2022: 514-515).

ويرى (هو مي بابا) بأن "نظرية ما بعد الاستعمار ميّزت وقدرت زئبقية الخطاب وفوضاه الجوهريين، بدلاً من أن تتقبل المفاهيم الثابتة أو الشمولية أو الكلية الكامنة في لب مفاهيم من قبيل الحضارة، والهوية، والعرق، والأمة، وحتى الحداثة نفسها". (الخليل، 2022: 36). وهدف نظرية ما بعد الاستعمار يظهر في "تحليل كل ما أنتجته الثقافة الغربية باعتبارها خطاباً مقصدياً، يحمل في طياته توجهات استعمارية إزاء الشعوب التي تقع خارج المنظومة الغربية. كما يوحي المصطلح بوجود استعمار جديد يخالف الاستعمار القديم". (حمداوي، 2018: 59).

كما إنه يهدف "إلى فضح الهيمنة الغربية، وتعرية مرتكزاتها السياسية والأيدولوجية مع تبيان نواياها الاستعمارية القريبة والبعيدة، والتشديد على جشعها المادي لاستنزاف خيرات الشعوب المقابلة الأخرى". (حمداوي، 2018: 61).

تعمل السلطات الاستعمارية دائماً من أجل مصالحها المختلفة والمتعددة من أجل أن تتمكن من السيطرة على البلد المستعمر وهذه المصالح جزء أساسي ومهم من العملية الاستعمارية أو المشروع الاستعماري في أي بلد وتحت أي مسمى كان. تحاول السلطة الاستعمارية التركيز على موضوع السيطرة على المناطق وإخضاعها بشكل كامل من خلال القضاء على البنيات أو الهياكل القديمة، نجد ذلك في ما عُرِف بـ (الأدبيات الكولونيالية). (ينظر: الكوخي، 2014: 335-336). ويقوم الاستعمار هنا بتقديم الهدم من أجل خلق بناء جديد وهذا يسمى بسياسة "التدمير من أجل البناء" أي تدمير البنية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التقليدية استعداداً لاستبدالها ببنية أخرى حديثة. (ينظر: الكوخي، 2014: 333).

أما بالنسبة للأديب أو المثقف فنرى أنّه "يعيش أغلب المثقفين الذين ينتمون إلى نظرية (ما بعد الاستعمار) في الغرب منفين، أو لاجئين أو محميين، أو معارضين. ومن ثم فهم ينتقدون مرة بلدانهم الأصلية وواقعها المتخلف، ومرة أخرى يرفضون سياسة التغريب والتمهيش والتمركز الغربي. ويعني هذا أنهم يعيشون تمزقاً ذاتياً وموضوعياً، وهم دائماً في غربة ذاتية داخل المنفى المكاني والذاتي والعقلي والنفسي... يقول (ادوارد سعيد) في كتابه (صورة المثقف)... فالمنفى بالنسبة للمثقف - بهذا المعنى الميتافيزيقي - هو حالة من عدم الراحة، حالة حركة، ألاّ يستقر أبداً، وألاّ يدع الآخرين يتساقطون إذ ليس بإمكانك أن ترجع إلى حالة من حالات وجودك الأولى في وطنك، ربما تكون الحالة الأكثر استقراراً، كما انه ليس بإمكانك أبداً - وبالأأسف - أن تصل إلى وطنك الجديد أو حالتك الجديدة". (حمداوي، 2018: 63).

ويعد "أدب" (ما بعد الكولونيالية) نمط جديد دخل الثقافة المعاصرة وتشرب في نسيجها وهو يعبر عن حراك ثقافي ونفسي فيه حسرات وآلام ولكن ذلك لا يكتشف إلا بعد الاحتكاك والتفاعل مع الآخر والكتابة عنه فضلاً عن كتابات الأقليات في بلدانهم ونظرة السلطة إليهم وتعاملها معهم... والمركزية الغربية ومدى فهم الآخر وتقبله وأسلوب التعامل معه على وفق معطيات الحاضر، والضياغ، والغربة والنظرة العنصرية، أو العرقية، أو الإثنية كل تلك المجالات تنتج أدب ما بعد الكولونيالية وهي مجالات يشترك فيها التاريخ بكل صورة وبكل ما يحمل من طرفي الصراع والوجود والجانب السياسي والاقتصادي والذي هو من الركائز الحيوية والمهمة في عملية بدء الصراع والاحتلال لمنابع الثروات، وهكذا نجد أكثر من كاتب يصور كيف هي نظرة الغربي للشعوب الفقيرة أو المستعمرة، ولاسيما العرب يصورونهم بوصفهم أناساً لا يحسنون التصرف بثرواتهم وأنهم ما زالوا متخلفين لم يغفلوا سن الرشد الحضاري، وأن الاستعمار جاء لرعايتهم والحفاظ على ثرواتهم". (الخليل، 2022: 515).

لذلك فالنصوص الأدبية والسردية التي تتناول موضوع الهجرة والمنفى، أو الأديب الذي يكون من الأدباء المهاجرين بسبب الحروب والإرهاب الاجتماعي والنفسي والثقافي والسياسي يحاول الكتابة عن هذه المعاناة ويعكس لنا الأحداث التي عايشها وبقيت في وجدانه وذاكرته لذلك "إن روايات وقصص الهجرة والشتات والمنفى في الكثير من الأحوال تعيد النظر أو التخيل في طبيعة وشرعية مفاهيم من قبيل الهوية والتاريخ والذاكرة والمكان. من جهة المضمون تستكشف هذه النصوص السردية المفاهيم التقليدية والمعاصرة للوطن والتشرد والإزاحة والانتماء وعدم الانتماء القومي والثقافي...، أما على المستوى الأدبي، فتتقرن حالة المنفى أو الطرد في العادة بحال من الحنين الشجي للعودة إلى الوطن الأصلي، وهو الأصل الذي يميل المنفي لاحقاً إلى إضفاء الطابع الرومانسي عليه باعتباره مكاناً متجسداً في الزمان، وهو الأمر الذي قد يؤدي إلى الاستيقاظ من الوهم عند العودة إليه. وما يظل وثيق الصلة بالتمثيل الأدبي للمنفى هو تركيبته الوجدانية ومنطقه الوجداني، أي الإحساس العميق بالخسارة والتشرد.. نجد أن الكتاب في أواخر العصر الحديث من أمثال جيمس جويس، وجورج لامنج، وجين ريز، وديرك ولكوت قد أكدوا على جوانب غموض المنفى وتجارب ذات الأبعاد التأريخية المتعددة". (شعبان، 2020: 43-44).

وإن علاقة الاستعمار بالهوية علاقة متواصلة لأن "سؤال الهوية منذ البداية كان سؤالاً حديثاً ارتبط أساساً بفترة الاستعمار وبتحطيم البنيات الاجتماعية التقليدية التي كانت تحتضن الفرد في إطارها وتقدم له الشعور بالانتماء وبالأمان الاجتماعي والسياسي والثقافي، لقد جرى استبدال منظومة القيم القائمة على القرابة وروح الجماعة إلى منظومة قيم بديلة تقوم على الفردانية والانتماء إلى الفضاء العام المشترك بدل الفضاء الخاص المرتبط بالعائلة والقبيلة". (الكوي، 2014: 339). والحالات المعيشة لها "كالحب والحرب، وهي وقائع أو تجارب تصدم وتزلزل أو تحرق وتدمر، وقد تطلق إمكانات هائلة تحدث تحولها في حياة المرء وفكره وأسلوبه.. وهذا شأن الحرب بأهوالها وفضاعاتها وتداعياتها: المعاناة والمكابدات تفتح أبواب المعنى وأفاق الفكر، إذ هي تحمل المرء على تغيير قناعاته وبخاصة طريقته في التفكير". (حرب، 2008: 186). لأن الحرب تغير فكر الإنسان وقناعاته لأن في الحرب وفي الواقع تجري أمور لم يكن يتصورها العقل يوماً ولم يفكر فيها أبداً بكل ما لها من تداعيات وآثار.

كما أن "الأديب أو الكاتب المهاجر يحمل ثقافتين ثقافة البلد الموطن القديمة والثقافة الجديدة للبلد المستقبل وهذا يجعل النفس في حالة احتدام وصراع داخلي لأن الكاتب سيظل يبحث عن الحرية كنوع من الهويات ويصبح الحرية هما صاعداً يومياً متجدداً له، ومن جانب آخر المنفى والغربة والابتعاد والبحث المستمر عن الهوية المفقودة.

وكذلك نجد أدباء الغربية يخصصون أعمالهم ومؤلفاتهم لمواضع الغربة والمنفى والهجرة والبحث عن الهوية أمثال الروائي (برهان الخطيب) وبلورة هذه المعنى في رواياته (الخبائن المعلقة) ، حيث تصور الشتات العراقي في الأعوام الأربعين الأخيرة". (ينظر: شعبان، 2020 : 64-65). بالنسبة للإنسان المنفي أو المهاجر التمسك بالهوية يمثل له "الجسر بين ماض لا يمكن نسيانه، ويأبى إلا أن يطل برأسه، وبين حاضر قد يدوم أو لا يدوم، وما بين الماضي والحاضر فثمة المستقبل الذي لا يزال برحم الغيب. الماضي يختزن بصور وانعكاسات وأحداث ووقائع ، وتصوّرات وآمال وخيبات وأحزان وأفراح، وبين حاضر ملتبس وغامض ومتناقض ". (شعبان، 2020: 135) و" الحرية في إحدى تجلياتها تظهر في فضائها ألوان ثقافات وتواصل حضارات وعادات شعوب وبشر، فالحرية إذا هي الشرط الأول للاجئ والمهجر والمنفي، وهي القاعدة التي تؤسس عليها الهوية اللاحقة، ذات البعد الإنساني والتي تمثل المشتركات الإنسانية". (شعبان، 2022 : 66). وبعد سقوط النظام السابق في العراق أصبح المواطن العراقي يعاني من غربة ونفي من نوع جديد وأصبح الماهجرون والنازحون يتوافدون إلى مناطق ومحافظات أخرى ودول أخرى بشكل كبير بعد هجمات داعش لمحافظة نينوى كذلك أصبحت الطائفية درجاتها تعلو في فضاء العراق السياسي الذي أدى إلى انقسام ما بين القوى السياسية وبين أفراد المجتمع العراقي . (ينظر: شعبان، 2022 : 66)

المبحث الثاني:- نماذج تطبيقية في الرواية "وحدها شجرة الرمان":

أولاً:- نبذة عن الروائي والرواية:

يُعد (سنان أنطوان) من الروائيين العراقيين المهاجرين إلى أمريكا عام (1991)، ولا سيما بعد ما شهده العراق من الحروب والدمار المستمر وهذا ما أثر على الكاتب في تغيير نظرته للحياة حيث أصبحت لا تطاق بالنسبة له. لذلك قرر الهجرة إلى بلاد الغرب وهذا ما يطبق عليه القول القائل بأن الإنسان المهاجر يكون هاجسه البحث عن الحرية والسلام لكنه يظل باحثاً عنهما في ظل فقدان هويته الأصلية وبسبب اقتلعه من جذوره رغماً عنه، لأن الظروف تكون أقسى وأشد من أن يبقى في هذا الصراع.

والرواية وحدها شجرة الرمان لكاتبها سنان أنطوان هي مأساة العراقيين الذين عاشوا الحروب والكوارث المتتالية بشكل مستمر وتعاشوا مع المعاناة والظلم والقهر وعبث الأقدار بهم كفرد ولم يسلم أي واحد من أفراد هذا الشعب من هذه المعاناة. والرواية تقدم لنا الأحداث التي مرّت بها العراق من الحروب والمآسي وما فعلته الحرب كأداة ساحقة بمشاعر أفرادها وكذلك ببلادهم ووطنهم من الحرب العراقية الإيرانية إلى حرب الخليج مع دولة الكويت مروراً بأنظمة الاقتصاد التي سميت بفترة الحصار والحروب والظلم الذي مارسه النظام السابق داخل العراق تجاه مكونات الشعب العراقي ومنهم الكورد بدون استثناء، ثم سقوط النظام على يد الجيش الأمريكي في العام (2003)، وكذلك ما خلفه من دمار وقتل وإرهاب وطائفية على أشد مستوياتها، ثم مجيء (داعش) القوى التي انضوت تحت لوائه بحجة إقامة الدين ومافعلوه بمدينة موصل ومدن أخرى كثيرة وأبرزها مجزرة (شنغال) التي قتل فيها آلاف الرجال واستبيح شرف الأمهات والبنات والاتجار بهن مثل العبيد واغتصابهن وبيعهن الخ.

هذه الرواية تجسد لنا حكاية كاتبها سنان أنطوان عن طريق بطل الرواية اسمه (جواد) من خلال الظروف التي عاشها في بلده مع أفراد عائلته، وكذلك من خلال ما حصل معهم من تجارب ومأس حيث أصبح الجحيم والموت صديقهم ورفيقهم الدائم في كل ما يفعلونه.

(سنان أنطوان) رسم لنا هذه الأجواء بصورة دقيقة وبارعة كونه من الكتاب المهجرين من العراق وهو عاش ورأى الأحداث التي مرت بها العراق من هنا نجد ذلك الربط بين شخصية (الكاتب) وبين بطل الرواية (جواد) في مسألة عيشهما معاناة الحروب والكوارث والإرهاب والقتل، فكلاهما يعاني مأزق الهوية في هوياتهم الفردية و/ القومية/ الوطنية/ الثقافية / النفسية/ الاجتماعية. وأن البطل يسرد لنا الأحداث في مراحل عمرية مختلفة عندما كان : (طفلاً/ شاباً/ رجلاً/ عاملاً) أي ممارساً لمهنة والده، حيث عانى من مأزق وصراع الهوية على الصعيد الداخلي الذاتي النفسي ارتبط بأحلامه وطموحاته في المهنة والحب والسفر وتطلعاته وآماله للمستقبل، أما على الصعيد الخارجي فتعلقت بظروف الحرب والسياسة والاقتصاد والدين وكل ما يتحكم به المجتمع الشرقي من العادات والتقاليد في جميع المراحل الذي (التي عاشها) عاشه . لأن ما مرّوا (مرّاً) به خلق لديهم حالة من عدم الأمان والبؤس والرهاب من القتل والموت بشكل مستمر حيث نجد أنهما يحاولان البحث عن هويتهم والعثور عليها من أجل أن يعيشا أو على الأقل أن يجدا السلام الداخلي والنفسي هذا من جهة، ومن جهة أخرى نستطيع أن نقول بأن هذه الرواية تنتمي إلى نظرية (ما بعد الاستعمار) لأن الكاتب من جيل الكتاب المهاجرين وكذلك عاش الأحداث التي مرّ بها العراق، ولاسيما ما خلفته القوى الغربية الأمريكية عندما قامت بتحرير العراق ومكونات الشعب العراقي من ظلم دكتاتورية النظام السابق هذا من جهة، من جهة أخرى هناك من أطلق على هذه العملية- أي التحرير- تسمية (الاحتلال الأمريكي) لأن هذه القوى كان لها دور أساسي في نهب خيرات العراق والاستفادة منها من أجل مصالح بلدانهم وكذلك ما افتعلوه من حروب طائفية من بين مكونات العراق، لا سيما بين الشعية والسنة آلت إلى كوارث وقتل ودمار وحرب الشوارع واختطاف ابناء العراق واغتيال المثقفين.. الخ وغيرها من أمور بشعة.

ثانياً:- النماذج التطبيقية:-

هناك مجموعة من المسببات التي أدت إلى تعمق صراع أزمة الهوية في هذه الرواية رصدناها من خلال المقاطع الموجودة حيث الروائي يسلط الضوء عليها منها وهي: الطائفية، والمليشيات الإرهابية، والحصار الاقتصادي والفساد الإداري، والقوى الغربية الاستعمارية وحجتها في إنقاذ تلك البلدان. هذه الأمور كلها تفاقمت في بلد مثل العراق وانعكست سلباً على جميع من يعيشون فيه وخلق لديهم حالة من الهلع والرعب من الموت وكلهم يبحثون عن طرق للنجاة من خلال رحلة البحث عن أنفسهم من هم؟ وما هوياتهم الحقيقية؟

1- الطائفية والمليشيات الإرهابية:-

بدأ الروائي صفحاته الأولى من الرواية من خلال حلم أو بالأحرى كوابيس تدور أحداثها عن الموت وطرق الموت المختلفة حيث يصور لنا في حلم ما مشهد موت البطل: "أحسست بألم حاد وبالسكين الباردة تخترق عنقي، سال الدم الحار على صدري وظهري، وسقط رأسي على الأرض وتدرج على الرمل ككرة. نزع احدهم العصا عن عيني ووضعها في جيبه وابتعد بعد أن بصق عليّ، رأيت جسدي إلى اليسار الدكة راکعاً وسط بركة من الدم". (أنطوان، 2020: 9).

يصور لنا الكاتب في هذه السطور البطل (جواد) من خلال ما يراه من كوابيس موته أو عملية موته بشكل سريالي ومخيف مشهد اختطافه من قبل الجماعات المسلحة والعصابات الموجودة يقومون بخطف الأفراد والاشخاص بحجة ما أو المطالبة بفدية مالية كبيرة وبعد ذلك يقومون بقتل الصخية، فهو يصور لنا كيفية قطع الرأس بشكل قطعي ووقوعه على الأرض هنا للدلالة على أن الرأس فيه العقل والمنطق والتفكير إلا أنه أصبح كرةً يلعب بها من يشاء دون تفكير أو تقدير له وهو رأس الإنسان المفكر الذي لاقية له في ظل هذا الظرف الذي تتحكم به هؤلاء الجماعات الإرهابية والعصابات الذين لا يقدرّون لا الإنسان ولا عقله ويفرضون كل ما هو ضد عقليتهم، وفيها الدلالة على ما كان يفعله أفراد داعش بوحشية من قطع رؤوس الضحايا بسكاكين حادة.

وفي مكان آخر من الرواية نجد أن مشهد (الموت) والحلم به يتكرر لدى (جواد) بشكل مستمر لكن التفاصيل تكون مختلفة أي هو وحبيبته (ريم) يموتان (معاً) في المشهد أو تموت هي لوحدها عندما قال " أحياناً أرى رأسها المقطوع على الدكة وأسمع صوتها تقول: غسلي حبيبي، لكن أول مرة يكون فيها مطر.. ممزق بين الأرق وبين هذا الكابوس الذي لم أحاول تفسيره أو فهم دلالاته، لكنه يلح عليّ. لعلّ الموت يضحك عليّ ويقول لي: ظننت أنك تستطيع أن تهرب مني أيها الأحمق؟" (أنطوان، 2020: 9-10)

هذه الصورة لـ (ريم) حبيبة (جواد) وهي أيضاً تعرضت لنفس المعاناة في رحلة موته وقطع رأسها في الحلم لكن (ريم) في الرواية بسبب معاناتها وظروفها الصحية تبتعد عن (جواد) بصورة مفاجئة وبعد فترة طويلة من الزمن تكتشف بأنها كانت مصابة بالسرطان وقُطعت إحدى يديها وماتت في النهاية. وكذلك يشير إلى أن البطل يعاني من حالة نفسية مرهقة وكذلك الأرق الذي لا يجعله أن ينام بشكل مريح لكي لا يفكر (بالموت) كأنه يحاور الموت ويحدثه في صوره تجسم (الموت) (كإنسان) وهذا الإنسان مكر وخادع ويقول له سأتي إليك شئت أم لا تقبلت الحقيقة أم لا، وإنك لا تستطيع أن تهرب حتى لو هربت إلى أين؟ وإلى متى؟ سواء أكان في الحلم أو في الواقع بأن (جواد) في نهاية المطاف أصبح (غاسلاً للأموات) وورث هذه المهنة عن (والده) حيث كان صاحب (مغسلة لغسل الأموات) ويقول:

"لا يكتفي الموت مني في اليقظة ويصرّ على أن يلاحقني حتى في منامي، ألا يكفيك أنني أكّد طول النهار معتنياً بضيوفا الأبديين وبتحضرهم للنوم في أحضانه؟ هل يعاقبني لأنني ظننت بأنني كنت قادراً على الهرب من برائته؟ لو كان أبي حياً لسخر مني ومن أفكارتي وما كان سيسمي دلعاً لا يليق بالرجال. ألم يمضِ هو عقوداً طويلة في مهنته يوماً بعد يوم دون أن يشتكي مرة من الموت؟ لكن الموت في تلك السنين كان مُقللاً وخفراً بالمقارنة مع موت هذه الأيام.. أكاد أسمع صوت الموت يقول: أنا أنا، لم أغيّر أبداً. لست إلا ساعي بريد". (أنطوان، 2020: 10)

إن الموت مع البطل دائماً وبجانبه لا يتركه لا في الحلم ولا في اليقظة لأن مهنته جعلت منه أن يكون قريباً من (الموت) لأنه يغسلهم ويطلب الموت بأن يبتعد عنه ويكتفي منه لأنه أحضر له الكثير من الأموات بصورة جميلة حتى يلاقوا الموت وهذا يدل على كثرة الأموات في تلك الأيام بسبب القتل والدمار والإرهاب المستمر، وفوق أعداد الموتى في هذه الأيام التي يعيشها أيام والده حيث كان قليلاً، وأسباب الموت مختلفة قبل اندلاع الحروب أي كان الموت طبيعياً للبشر، أما الحرب زادت من عدد الموتى والقتلى وجسم الموت في شخصية منفردة ويُعلن بأنه هو هو ولم يتغير ولن يتغير وليس سوى مأمور يقوم بعمله مثلما طلب منه.

في مكان آخر يقول حتى أن الماضي سيقتل ويموت أي أن الماضي الجميل المليء بالحضارة والثقافة سيدفن ويقتل لأن الحاضر مات ويُشير قتل المرأة العراقية واغتصابها من خلال صورة (ريم) ويقول " إنها الماضي الذي يُقطع رأسه هو الآخر بعد أن مات الحاضر؟ أو قد تكون النساء اللواتي قرأت عن اخبار اغتصابهن وقتلهن ويحرم عليّ شرعاً أن اغلسهن؟". (أنطوان، 2020: 11).

ويستمر الكاتب في نقل صور الموت بأبشع الطرق وبأنواعه المختلفة بشكل يومي الذي يحدث في العراق حيث يصف بأن العراق أصبحت سجنًا واسعاً وأن المدن مثل (بغداد) فيها سجون صغيرة ومتلاحقة ببعضها البعض بما وضعه الميليشيات من أسوار كونكريتية كبيرة كأن لكل قوى وجماعة منطقة خاصة بهم.

وفي مكان آخر يذكر لنا مشاهد موت أحد الأشخاص وهو شبيه لصديقه (جواد) الذي قتل عندما قال " كانت العلامة الفارقة التي اكتسبها شبيهه صديقي هذا ثقباً في وسط الجبين من جراء رصاصة كانت بمثابة النقطة التي أنهت سطور حياته، قال أحد الرجال الذين أحضره إنه صاحب محل قُتل في عملية سطو، قلت في سري: حمداً لله، ليس قتلاً طائفيًا، لكن هل يهم الميت كيف ولماذا يموت؟ سرقة، طمع، كره، طائفية؟" (انطوان، 2020: 82).

هنا يعبر عن دهشة وشوق الإنسان للموت الطبيعي لكي يحمده الله عليه وأن الأسباب التي ذكر من طمع وقتل وكره وطائفية لم يكن لها دور في هذا القتل. لأن الحرب تعمل كآلية مستمرة وتزداد قسوتها مع الأيام مع تنوع آلياته وأسلحته والأسباب التي تؤدي إلى اندلاع الحروب. وفي هذا الوقت بالتحديد يصبح الإنسان في حالة من الاشتياق إلى الموت مع أن الموت عملية غير محبذة لدى الجميع. والبطل (جواد) يتحدث عن مكان غسل الأموات ويصفه بأنه بمثابة مقبرة كبيرة لاستقباله هذا الكم الهائل من أجساد الموتى:

"المغيسل معتماً كقبر كبير ماعدا بصيص من النور كان يدخل من الشباك الصغير، خرجت إلى الحديقة الصغيرة الخلفية وتفرصت أمام شجرة الرمان التي كان أبي يحبها كثيراً والتي شربت مياه الموت لعقود. وها هي الآن تستعد لشرب الماء المناسب من جسده.. في صغري كنت أكل ثمار هذه الشجرة حين يقطفها أبي ويعود بها إلى بيتنا بهم. لكنني توقفت عن ذلك بعد أن أدركت بأنها تشرب من مياه الموت". (أنطوان، 2020: 96).

هنا المكان الذي تغسل فيه الأموات بالنسبة (لجواد) أصبح مقبرة كبيرة من هم ضحايا قتل وإرهاب وطائفية وغدر وكره أي لا يجد مكاناً لكي يشعر فيه بالراحة والمكان وهويته في الطفولة من البراءة والسلام ووجود الأب بات معدماً وخلق لديه عدم التوازن حتى أن الفاكهة التي كان يتناولها صارت شيئاً آخر. وهنا يشير إلى متواليات المكان من أصغرها إلى أكبرها أي من القبر ثم مكان الغسل إلى المدينة أو المدن كلها ثم الوطن بصورته الأكبر، الوطن الآن يمثل مقبرة وجحيم كبير بالنسبة للبطل وأمثال البطل الذين يعيشون فيه، وهذا دليل مرة أخرى على عدم بقاء هوياتهم وأصبحوا بلا هوية جميعاً وفقدوا ما كانوا يملكونه في الماضي وحاضرهم لا يساوي شيئاً. ونجد المفارقة بين ما يوجد داخل الحديقة الصغيرة وهي شجرة الرمان التي تزهر بشكل مستمر للدلالة على (الحياة) و(الأمل) مقابل (الموت) و(الحزن).

2- القوى الغربية الاستعمارية في صورة (المنقذ):

وفي حوار (جواد) مع عمه ومع شاب رآه في شارع المتنبي: "قال إنه متشائم بخصوص الخطاب الطائفي وقال إن ما حدث ليس مجرد احتلال، بل تدميراً لدولة عمرها أكثر من ثمانين سنة وبأن الحرب والاحتلال هذا هو الضربة القاضية، لكن العملية، برأيه، بدأت منذ حرب 91 التي دمرت البنية التحتية، ثم الحصار الذي ضرب النسيج الاجتماعي والآن الفراغ الذي خلفه الاحتلال ستملاه الأحزاب الطائفية لأنها تمتلك مؤسساتها وخطابها الذي يدغدغ العمق النفسي، ولأنها عرفت كيف تستغل المناخ السائد". (أنطوان، 2020: 128).

أشار إلى أن (الطائفية) من الأمور التي سلطت عليه الضوء وتنمّت وتعمق فيه (الأمريكان)، لأن هذا المستعمر أتى عن طريق إنقاذ العراق تحت وطأة جبروت الدكتاتورية لكن سرعان ما انتهت هذه المهمة بدأت قوى الاستعمار بخلق النفاق وخلق سياسة المحصنات وأرادت تدمير حضارة عريقة كالعراق عمرها على الأقل ألف سنة. والإشارة إلى زمن (الحصار) الذي دمر البنى الاقتصادية وأصبح الفقر والجوع هو الحاكم على نفوس الناس، وما فعلته القوى الخارجية استفادت منها القوى المختلفة وطوائفها لمصالحهم الخاصة دون الاكتراث بالبلد.

في مكان آخر من الرواية يقول: "لأن هناك من يريد أن يقطع رأس أبي جعفر المنصور ويسقط تمثال المتنبي. التماثيل تخاف أن تنام في الليل لكيلا تستيقظ ركاماً". (أنطوان، 2020: 144).

هذه صورة مليئة بالخوف ومشبعة منها حتى التماثيل يعرفون ذلك الشعور ويخافون من الموت والدمار، وأشار الكاتب إلى أن هذه التماثيل التي تمثل حضارة العراق العريقة أصبح بقائها ووجودها مهدداً مثلهم مثل أبناء وطنهم حتى أن الإحساس بالخوف وصل إلى ماهو (حجر) أو جماد لأنهم يخافون من أن تأتي ساعة أو أقل من ساعة يجدون أنفسهم قد أبيدوا ولم يبق لهم وجود. وفي مكان آخر يقول:

"كنت قد ظننت أنني نجحت في الابتعاد عن الموت وطقوسه في السنتين اللتين أعقبتا وفاة أبي. لكنني اكتشفت أنني كنت قد ابتعدت عن التعامل معه بيدي فقط، لكن أصابعه كانت تزحف في كل مكان من حولنا ولم أتمكن من طرد فكرة أنه، يعيشني، لكنني كنت أحاج نفسي بالقول. وما الذي تغير؟ ألم يكن هذا هو الحال. من قبل عندما كان أبي هو العائد؟ ألم أكن أكل وأشرب ممّا يوقّره لنا الموت بطريقة أو بأخرى، كنت أساهم في مصروف البيت قليلاً، الفرق الآن هو أن الموت أكثر سخاءً بفضل الأمريكيان". (أنطوان، 2020: 145).

ولأن (البطل) (جواد) في مأزق نفسي كبير وهو عانى ولا يزال على طول مدار الرواية يعاني ولاسيما خوفه ومعاناته مع (الموت) ويريد أن يهرب بأي شكل من الأشكال عنه إلا أن كل محاولاته باءت بالفشل وظن بأنه ابتعد عنه لكنه أدرك أنه من حيث البعد الجسدي أو الفيزيكي لم يعد يمارس المهنة لكن أصابع الموت وأجواء وطقوس الموت في كل مكان كأنه يعيش في داخله. ويريد أن يقول بأن الموت أصبح شيئاً عادياً لأننا نتعامل معه يومياً. ويذكر لنا كيف كانوا يكسبون لقمة عيشهم في السابق عندما كان والده حياً، لكن في الوقت الحالي هو يمارس مهنة الوالد ومسؤول عن تدبير لقمة العيش. ويريد أن يقول بالرغم من بشاعة وفضاعة الموت إلا أن (الموت) هو سبب للحياة وللأكل والشرب بفضل الموت وأعداد الموتى الكثيرة هم لا يزالون يعيشون وعلى قيد الحياة ما اختلف فقط هو أسباب الموت وأعداد الموتى لأن عبارة (سخاء) أي كثرة أعداد الموتى يعود الفضل فيها (للأمريكان) أي قوى الاستعمار ومعها الأحزاب الفاسدة التي أسهمت في تشويه الحضارات والسيطرة على شعوب العالم الثالث وذهاب إرثهم وحضارتهم وخيرات بلادهم وتاريخهم وطمس هوياتهم القومية والجغرافية والنفسية مما خلق لهم مأزقاً كبيراً لا يستطيعون النجاة منه، لأن الفرد بدلاً من أن يعيش الحياة في أمان واستقرار يعيش الموت والرعب وعدم الأمان والهلع والطائفية والنزاع والحقد والكراهية تجاه الآخر من أبناء شعبه. وفي خوض هذا الغمار الشائك والمتشعب بالألغاز والحيل السياسية يضيع الفرد ثم معه الشعب والوطن كله.

ويذكر لنا البطل مشاهد أخرى عن الموت ورحلته مع غسل الأموات عندما اقتنع بأن يمارس مهنة أبيه وكان يغسل الأموات (الذين كانوا) يأتون من قبل (الحاج الفرطوسي) أيام الخميس بكثرة وسماه (حصاد الموت الأسبوعي) يقول: "لكن الخميس كان الأصعب

والأطول لأنه اليوم الذي تصل منه ثلاثة الفوطوسي المحملة بحصاد الموت الأسبوعي، كل أولئك الذين يُقتطعون من عوائلهم وحيواتهم؟ ويلقى بهم في المزابيل على أطراف بغداد أو في النهر أويتعقنون في الطب العدلي.. فكنت أضع في دفترتي سبب الموت، بدلاً من الاسم المجهول: رصاصة في الجبين، خطوط حمراء حول الرقبة، طعنات سكين في الظهر، جسد مقطع بمنشار كهربائي، جسد بلا رأس، تقّنت في انفجار و...و...وكان كل اسم يهوي إلى أعماقي ويظل صدها يتردد، ولا شيء يمحو الوجوه حتى صارت ذاكرتي دفترًا لوجوه الموتى، أدركت ذات يوم وأنا أعود إلى البيت بأنه، باستثناء مهدي وأمي، فإنني كنت أعيش أيامي مع الموتى". (أنطوان، 2020: 184-185).

فبالإضافة إلى جثث الموتى التي تأتي إلى المغسلة كانت أيام الخميس من أصعب أيام الأسبوع لأن هناك جثثاً من أنواع أخرى تأتي كمحصلة أسبوعية لهؤلاء الأشخاص الذين يموتون بأسباب مختلفة ومن ليس لديهم عوائل وأقرباء وممن قتلوا مجهولي الهوية، ويصف تلك الحالة الشعورية التي يعانيها بسبب هذا العمل كأنه يعيش مع الأموات يومياً وكان يُسجل في دفتر خاص به، أسباب وأنواع الوفاة أو الموت أصبح هو الحي الميت روحاً ونفساً لأنه ترك كل ما يحبه كفرد ولأن هويته لم يبق لها وجود وكل ما كان يحلم به في طفولته وشبابه دفنت مع الأموات ولم يعد يعرف ذاته أو من هو؟ وماذا يريد؟ بالإضافة إلى حلمه بأن يصبح فناناً تشكيمياً عالمياً الظروف أجبرته على التخلي عن هذه الهوية، وكذلك فشله في السفر والهجرة إلى خارج العراق مرة أخرى خلق له أزمة نفسية، وعيشه وتعامله مع الأموات وممارسة غسلهم يومياً شدد عليه الحالة وأصبحت حالة مأزق الهوية لدى (جواد) على جميع الأصعدة والمنعطفات في حياته.

في مقطع آخر يقول: "بدأت أكره الجميع بالتساوي، شيعة وسنة، وأن كل هذه المفردات تخنقني كأنها مسامير صدئة في رثتي، شيعي، سني، مسيحي، صُبي، يزدي، كتابي، رافضي، ناصبي، يهودي، لو أنّ بإمكانني أن أمحوها كلها أو أفخخ اللغة وأفجرها كي يستحيل استخدام هذه المفردات". (أنطوان، 2020: 187).

وفي صورة أخرى ومن خلال حوار أجراه (جواد) مع (أمه) قال لها: بأنه يكره الجميع بدون استثناء سواء ينتهي إلى مذهب وطائفة ومبدأ لأن الكل هنا متساوي ويحمل حصته ونصيبه من ممارسة الظلم والقمع والفساد وازدياد نار الطائفية، ويقول لو كان لأصبح هو أيضاً مثل هؤلاء الشريرين يفجر اللغة مثل قنبلة مفخخة تنفجر وتقتل أبناء العراق، لكنني قتلت المفردات لكي لا تبقى هذه المعاني والرموز التي تسبب بكل هذا الدمار والموت. ويشير إلى أن الإنسان عندما يضع مسماراً صدئاً في مكان ما مثل جدار أبيض نرى بعد فترة ما يتحول لونه إلى لون باهت وشاحب، هذا المسمار ذاته عندما نضعه في جسم ما حي يسبب له التسمم والتشوه فيه. كأنه يريد القول إن مسمار الحرب تحت مسميات مختلفة مثل الدين، القومية، الانتماء الحزبي،... الخ يمثل ذلك المسمار الصديء الذي ليس له العلاج بل أنه يشوه كل شيء يصادفه ويكون من المستحيل إصلاحه.

"الجحيم كله هنا، ويكبر يوماً بعد يوم، جذور شجرة الرمان هذه، مثلي، هنا في أعماق الجحيم، يا ترى هل تبوح الجذور بكل شيء للأغصان أم أنها تختبئ عنها ما يوجع؟". (أنطوان، 2020: 254). الإشارة إلى شجرة الرمان كرمز للحياة لكنها في مشهد آخر نرى أن الشجرة لها جذور وجذورها مثل جذور الإنسان الذي تجذر في بلاده ووطنه ولا يستطيع الاقتلاع عنه لأسباب كثيرة ومختلفة وشجرة الرمان أيضاً لا تستطيع لأنها لو اقتلعت لماتت هي أيضاً ولكن كلانا مدفونان بأرض أو أعماق الجحيم بشكل مأساوي وسوداوي، وفي

سؤال يقول يا ترى الجذور تبوح بمعاناتها للأغصان أي مثلي تبوح بما في داخله من أسي وقهر وحرمان ومشاكل أم أنها تلتزم الصمت ولا تقول شيئاً!!

"كنت أظن أن الحياة والموت عالمان منفصلان بينهما حدود واضحة، لكنني الآن أعرف أنهما متلاحمان، ينحطان ببعضهما البعض، الواحد يسقي الآخر كأسه، أبي كان يعرف هذا وشجرة الرمان تعرف هذا جيداً، أنا مثل شجرة الرمان، لكن كل اغصاني قُطعت وكُسرت ودُفنت مع جثث الموتى، أما قلبي صار رمانة يابسة، تنبض بالموت، وتسقط في كل لحظة في هاوية بلاقرار". (أنطوان، 2020: 255).

وفي النهاية يصل (جواد) إلى أن ثنائية (الموت × الحياة) متلاصقان ببعضهما مثل أجسام الهياكل كإشارة إلى حسه الفني وأنه في أعماقه فنان ولا يزال يحلم بالفن والحياة أن الأجسام والهياكل تنحطان من بعضهما البعض ويسقيان البعض من أجل الاستمرارية وكعملية الأخذ والعطاء بأشكالها المختلفة وكذلك يقول بأنه من الحياة والفن تحولت إلى (رمانة يابسة) أو إنني الآن أمثل شجرة باهتة اللون وثماري جافة وجذوري اقتلعت وأغصاني قطعت ومُت مثل البقية كباقي الجثث. كأنه يعترف لنا بأنه إنسان بلا هوية وبلا جذور وهو في مأزق البحث عما فقدته ويبحث عن الحرية والخلاص والنجاة.

3- الحصار الاقتصادي والفساد الإداري:-

من الأسباب الأخرى التي أدت إلى خلق المعاناة بالنسبة للبطل وأفراد المجتمع العراقي عبارة عن الأزمة الاقتصادية والحصار وسوء إدارة الدولة من قبل أشخاص انتهازيين لهم مصالح في هدر طاقة ونهب خيرات البلاد بأي شكل من الأشكال ونجد الروائي في مقاطع من الرواية يتحدث عن قضية (الرشوة) ففي مقطع يقول: "قلت له إن الرشوة انتشرت بشكل فظيع أثناء سنين الحصار وصارت جزءاً لا يتجزأ من أي تعامل. فقال إن هذه عملية محو الدكتاتورية والحصار دمّر البلد والآن تأتي مرحلة التدمير الشامل ومحو العراق كلياً ومسحه". (أنطوان، 2020: 123).

نجد أن (البطل) يذكر لنا تلك الظواهر في المجتمع العراقي التي أدت إلى خلق هذه الحالة من الانقسامات بين القوى السياسية في العراق والمكونات الأخرى التي تعيش في هذا الوطن يتحدث عن (الرشوة) وأزمة الاقتصاد التي غيرت هوية الإنسان الذي تخلى عن مبادئه وقيمه، ويعيش حالة من التناقض ومن أجل البقاء وكسب المعيشة يقبل بالرشوة ويمارسها. وأن أي شيء أو عمل لا يسير حسب مجراه الطبيعي يجب على شخص ما أن يتدخل أو يعطي رشوة لكي يسير الأمور، كما أن دكتاتورية النظام كان لها أيضاً الدور الأكبر في خلق هذه الحالات وعدم الاستقرار وعدم الشعور بالأمان وأن الفرد قلق بشكل دائم بشأن أبسط حقوقه ألا وهو حق العيش في بلده آمناً ومستقراً، وأن يتمسك بهويته ومبادئه وأخلاقه دون قلق وخوف.

خاتمة:

1- فضاء المآسي والحروب المستمرة خلف الكثير من التراكمات والأزمات البشرية للفرد العراقي منها مأزق الهوية الذي يتعلق بالنواحي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

2- تعد هذه الرواية من الروايات الغنية بعمق دلالاتها ومعانيها حيث استطاع الروائي أن يبرز لنا أدق التفاصيل، لاسيما في شخصية البطل (جواد) في كل مراحلها وتصوير صراعاتها وكل الصعوبات والنزولات لحالتها النفسية والمآزق الذي يعانيها.

3- الرواية لروائي مهاجر تنتمي فترة كتابتها لفترة بعد سقوط النظام الدكتاتوري السابق في العراق، عكست الرواية لنا تلك الأسس والمقومات التي استندت عليها نظرية ما بعد الاستعمارية، لاسيما الصراعات الخارجية التي خلقها الاستعمار بين القوى السياسية الداخلية وكيفية خلق فجوات عميقة استغلتها القوى الداخلية حتى وصل إلى خلق الخلايا والمنظمات الإرهابية واشتعال نار الطائفية وحرب الشوارع، وسلب الخيرات وثروات العراق من قبل قوى الاستعمار وتدمير الحضارة بصورة مبرمجة وغير مباشرة.

Identity Crisis in the Post-Colonialism Novels, “Whdaha SHjara SHjarat AL-Rumman” as an example

Siva Ali Arif Fatah

Department of Arabic, College of Language, University of Sulaimani, Sulaimani
. Kurdistan Region. Iraq.

Abstract:

This research is titled, *Identity Crisis in the Post-Colonialism Novels, The Novel “Whdaha SHjarat AL-Rumman” as an example*. This research is a description about identity crisis in a novel by the Iraqi author (Sinan Antoon) that is regarded as one of the post-colonialism novels. In this research, we have talked about that the author represents the agony, wars, devastation and havoc Iraq went through starting from the outset of the Iraq-Iran war until the emergence of the ISIS. The author, as a critic, has strived for focusing on the atrocities and consequences of war on the Iraqis of all different groups. Concurrently, he has strived for working on the novel text using a scene or making a character as the novel protagonist and the details of showing the different crises of an intellectual individual like social, economic, political and cultural crises. Our research is backed by the theoretical subjects relevant to the post-colonialism approach and the concepts and aspects the approach relies on that are deviation from sticking to a certain identity and the conflict that identity creates with crises aiming to reach stability and keeping the identity of Iraqi individuals. The author has regarded using a new and different language as he has personally lived in the events and has then chosen diaspora due to war and devastation to reach a sort of stability and protection. According to the theory, this

situation, once again, results in identity crisis. Finally, we have explained the text using the method of textual analysis and presented some conclusions.

Key Words: Post-Colonialism, Identity, Identity Crisis, Sinan Antoon.

المصادر

- أنطوان، سنان، (2020)، وحدها شجرة الرّمان، الطبعة العشرون، العراق.
- حرب، علي، (2008)، خطاب الهوية (سيرة فكرية)، دار العربية للعلوم ناشرون، الطبعة الثانية، بيروت.
- الخليل، سمير، (2022)، دليل المصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي (إضاءة توثيقية للمفاهيم الثقافية المتداولة)، اتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق، العراق.
- الدواي، عبدالرزاق، (2013)، في الثقافة والخطاب عن حرب الثقافات (حوار الهويات الوطنية في زمن العولمة)، مركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت.
- شعبان، عبدالحسين، (2020)، الهوية والمواطنة (بدائل الملتبسة والحداثة المتعثرة)، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الثانية، بيروت.
- عماد، عبدالغني، (2019)، سوسيولوجيا الهوية (جدليات الوعي والتفكك وإعادة البناء)، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الثانية، بيروت.
- الكوخي، محمد، (2014)، سؤال الهوية في شمال أفريقيا، أفريقيا الشرق، المغرب.
- حمداوي، جميل، (2018)، نظرية ما بعد الاستعمار (الاطروحة في خدمة علم الاستغراب)، www.Al-estighrab.com.